جمعية
الأنبا غريغوريوس
أسقف البحث العلمى

من روائع الأنبا غريغوريوس
(٣٢)

القديس كيرلس الكبير الإسكندرى
عمود الإيمان

للمتنيح
الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمى

الكتاب : القديس كيرلس الكبير الإسكندرى عمود الايمان .

المؤلف : المتنيح الأنبا غريغوريوس .

إعداد : الإكليريكى منير عطيه .

الجمع والناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريـــوس

٢١٦ش . رمسيس - شقة ٨ - ت : ٢٤٨٣٣٣٦٣ - ٢٦٧٤٩٢٥٠ .

الغلاف : شركة فاين للطباعة والتوريدات - ت: ٢٤٨٢٠٩٠٣ .

المطبعة : شركة الطباعة المصرية - العبور - ت: ٤٦١٠٠٥٨٩ .

رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٠٤٩ / ٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف والناشر

القديس كيرلس الكبير الإسكندرى

عمود الإيمان

من هو كيرلس الكبير :

لقد لقبوه بـ" عامود الإيمان " كما لقبوا من قبله القديس أثناسيوس الرسولى بـ" حامى الإيمان " وهو لقب روحانى كنسى عظيم ، يدل على مبلغ ما عانى الإيمان الأرثوذكسى فى زمن كيرلس من معوقات وصعوبات كادت أن تعصف به ، لولا أن وقف البابا كيرلس فى وجه الزوابع والأعاصير ، صامدا راسخا كالطود الأشم ، وذهبت هى وذهب معها الهراطقة وأعداء الإيمان وبقى الإيمان الأرثوذكسى شامخا صافيا . وكان شرف القديس كيرلس أنه وقف مع الإيمان حارسا أمينا له ، يحامى عنه ، ويذود عن حياضه ببسالة وشجاعة فلم تلن له قناة ، حتى عرف الإيمان المسيحى من بعده بإيمان كيرلس ، كما عرف من قبله بإيمان أثناسيوس ، ومن قبلهما " بالإيمان المسلم مرة للقديسين " (رسالة القديس يهوذا : ٣) .

هذا هو القديس كيرلس الكبير ، المعروف فى الغرب المسيحى بكيرلس الإسكندرى وبطل مجمع أفسس الأول ،

المجمع المسكونى الثالث ، الذى انعقد فى سنة ٤٣١م ، وهو البطريرك الذى وضع مقدمة قانون الإيمان والتى يتلوها المؤمنين قبل أن يتلوا قانون الإيمان وهى :

" نعظمك ياأمَّ النور الحقيقى ، ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله لأنك ولدت لنا مخلص العالم كله ، أتى وخلّص نفوسنا . المجد لك ياسيدنا وملكنا المسيح ، فخر الرسل ، إكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا ، نكرز ونبشر بالثالوث القدوس لاهوت واحد ، نسجد له ونمجده ، يارب ارحم يارب ارحم ، يارب بارك آمين " .

بل هذا هو كيرلس الأول ، أول من تسمى باسم كيرلس ، بين باباوات الإسكندرية ، بطاركة الكرسى المرقسى ، وترتيبه الرابع والعشرون فى سلسلة الخلافة الرسولية (١٧ من اكتوبر لسنة ٤١٢ – ٢٧ من يونيه لسنة ٤٤٤) م وهو الذى دون القداس الذى سلّمه إلينا القديس مرقس الرسول فصار يعرف أيضا بالقداس الكيرلسى .

دافع البابا كيرلس عن الإيمان الأرثوذكسى كل حياته ، ضد عدوين للإيمان عنيدين ، أولهما : الإمبراطور يوليانوس الجاحد والذى كتب عشر مقالات هاجم فيها دين المسيح ، وقد ظن الذين قرأوها من الشباب الوثنى أنها هدمت أركان الدين

المسيحى ، ولكن القديس كيرلس فندها مقالا مقالا وفضح تفاهتها وأبرز عظمة الإيمان المسيحى .

وأما الخصم العنيد الثانى فهو نسطور بطريرك القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، الذى أنكر أن تسمى العذراء بوالدة الإله ، وأنكر بالتالى أن يكون المولود منها ابن الله ، وقد ناضل القديس كيرلس عن حقيقة المسيح له المجد ، وأنه ابن الله من حيث لاهوته ، وهو أيضا ابن مريم من حيث ناسوته ، وأن اللاهوت قد اتحد بالناسوت اتحادا تاما كاملاً ، لكن من غير اختلاط أو امتزاج أو تغيير ، اتحادا لا يقبل إنفصالا أو تجزئة أو إنقساما . وأبان أن المسيح واحد من طبيعتين ، وأنه بعد الإتحاد ، أى بعد التجسد ، لا نستطيع أن نتكلم فى المسيح عن طبيعتين ، وإلا فلا يكون الاتحاد حقيقيا وتاما .

ولد فى سنة ٣٦٦ وتسمى باسم (كيرلس) ومعناه " عبد الرب " وحرفيا : (الرّبانى) ولقد عاش فعلا طبقا لمعنى اسمه ، عبدا للرب وحده ، فكان كقول بعض القديسين " كن عبدا لسيد واحد " .

تتلمذ القديس كيرلس على علماء مدرسة الإسكندرية وأرسله البابا ثيئوفيلوس وهو البابا الثالث والعشرون إلى دير القديس الأنبا مقار ، لا ليحيا راهبا ديريا ، بل ليتتلمذ على

شيخ روحانى ، هو الأنبا سرابيون خليفة الأنبا مقار (القديس مقاريوس المصرى) فى قيادة الحياة النسكية فظل تحت يده خمس سنوات درس فيها علوم الكنيسة وروحانية الآباء ، عاد بعدها إلى الإسكندرية فرسمه البابا شماسا فقسيسا ، وكان موهوبا ومجملا بالفضائل الروحانية . وكان عالما مقتدرا على الوعظ والتعليم الصحيح ، فصيح العبارة ، غيورا وحارا فى العبادة ، وكان لاهوتيا من جبابرة الروح والعقل .

وكان لمواعظه أثر بليغ فى نفوس الناس . فلما رقد البابا ثيئوفيلوس فى الرب اختاره الأساقفة والشعب ليكون بطريركا .

ولقد يبدو غريبا لأقباط اليوم أن يصير كيرلس بطريركا فى زمن كان يعيش فيه شيخ الروحانية العظيم وعملاق الرهبنة ، الأنبا شنوده رئيس المتوحدين . ولكن القائمين على تدبير الكنيسة فى ذلك الزمن كانت لهم البصيرة الروحانية النيرة ، فلم يخلطوا بين مؤهلات الرهبنة ومؤهلات القيادة الكنسية ، إذ أن التركيب النفسى والذهنى للراهب غير التركيب النفسى والذهنى للقائد والخادم الرسولى . وقد كان آباء الرهبنة أنفسهم أشد حرصا على حفظ رسالة الرهبنة صافية خالصة لهدف الرياضات الروحانية العالية ، بل كانوا يهربون من خدمة الكهنوت ، ويحذرون أولادهم الرهبان من

قبولها ، لأنهم أرادوا أن يحتفظوا بأهداف الرهبنة لذاتها ، لا لتكون وسيلة لغاية أخرى ، فلا يحولونها إلى مدرسة لاهوتية لتخريج كهنة وخدام للعالم . فليست هذه هى مهمة الدير ولا مهمة الرهبنة . مهمة الرهبنة مهمة روحانية تعبدية تصوفية . أما إعداد الخدام فهو مهمة المدارس اللاهوتية ، وإن كان الخدام يحتاجون من وقت إلى آخر لقضاء فترة أو فترات خلوة روحية فى الأديار والصحارى كما فعل مخلصنا يسوع المسيح ، وكما فعل القديس بولس الرسول ، وكما فعل القديس أثناسيوس الرسولى ، والقديس كيرلس عمود الإيمان .

وقد كان التعاون بين الكنيسة والدير قديما ، تعاونا من غير خلط بين الطريقين والمنهجين ، ولذلك كان للأديرة استقلالها الروحى والإدارى وكانت لها رياستها المستقلة بعيدة عن تدخل رئاسة الكنيسة وقياداتها . ومازالت إلى اليوم كل الأديار فى الغرب والشرق لها رئاستها المستقلة ، إستقلال الجامعات واستقلال السلطة القضائية فى الدول الراقية . ولابد أن نعترف هنا أن الضعف الذى نزل بالرهبنة فى القرون المتأخرة يرجع أول مايرجع إلى تدخل السلطة الكنسية فى شئون الرهبان ، ففقدت الرهبنة أكبر سند حفظ للرهبنة فى العصور الأولى مقوماتها . ولن تعود الرهبنة إلى مجدها الروحانى الحقيقى إلا يوم تعترف رئاسة الكنيسة العليا بحق

الرهبان فى أن يعيشوا هادئين ، وبعيدين عن سلطات القيادات الكنسية . إنى أصلى وسأظل أصلى أن يكون هذا الدرس واضحا مفهوما ، لضمائر المخلصين من أبناء الإيمان الأرثوذكسى ، أبناء أثناسيوس وكيرلس عمود الإيمان .

وتعيد كنيستنا لذكرى انتقال البابا كيرلس الأول إلى الأخدار السمائية فى الثالث من شهر أبيب القبطى ، ويوافق العاشر من شهر يوليو (تموز) . أما الكنائس التى تسير على الطقس البيزنطى والتى تتبع التقويم الغريغورى ، فتعيّد لنياحته فى ٢٧ من يونيه (حزيران) . وأما الكنيسة الرومانية اللاتينية فتحتفل بتذكاره المجيد فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير (كانون الثانى) .

عاش القديس البابا كيرلس الكبير مناضلا مكافحا ، فى سبيل إيمانه ، وكان حارا فى الروح ، شديد الغيرة على مجد الرب يسوع ، إلى درجة العنف والقسوة أحيانا . وكان شديد المراس ، قوى الحجة ، ثابت الجأش ، لاتلين له قناة ، قاوم الهراطقة وأصحاب البدع بكل قوة وشجاعة ، وفنّد بالأسانيد النقلية والعقلية دعاواهم ، وهزمهم جميعا .. ووضع فى تفسير الكتاب المقدس والقضايا اللاهوتية والإيمانية كتبا وتواليف تميزت بالعمق والروحانية والأمانة والدقة . كانت ولاتزال تصريحاته وتعبيراته دستورا مقدسا التزم بها المسيحيون شرقا

وغربا ، ومازالوا يلتزمون بها إلى اليوم كأفضل تعبيرات وأدق صيغ إيمانية تترجم فى أمانة وصدق عن حقيقة الإعتقاد فى الإتحاد القائم بين لاهوت المسيح وناسوته . فالقول فى هذا الموضوع عند الشرقيين والغربيين ، عند الذين لا يعترفون بمجمع خلقيدونية والذين يعترفون به ... عند جميع المسيحيين على إختلاف كنائسهم .. هو ماقاله القديس كيرلس الإسكندرى .. وفى المؤتمرات الكنسية العالمية والمحادثات الثنائية الرسمية وغير الرسمية ، تصدر بيانات يعترف فيها الجميع بأن القديس البابا كيرلس الاسكندرى هو أبونا جميعا ، أبو الشرقيين وأبو الغربيين .. عند أبوته يلتقى الجميع وتحت عصا رعويته يجتمع الكل .. وتعليمه فى الإتحاد الكامل بين الإلهية والإنسانية فى المسيح صار فى المحادثات الكنسية الجارية اليوم نقطة البدء التى أجمع عليها الكل .

قال البابا كيرلس الأول ، ماقاله أبوه القديس أثناسيوس من قبله ، أن المسيح كان ولم يزل إلها . وأما ميلاد المسيح من العذراء فهو فى حقيقته تجسد حقيقى كامل .. أى أن الله الكلمة إتخذ له جسدا .. استتر فى جسد .. احتجب فى جسد .. صار له جسد .. لكن مازال مع ذلك إلها .. على أن الجسد بالنسبة للاهوته لم يكن مجرد مسكن ، كما يسكن الإنسان فى بيت ، ولكن اللاهوت اتحد بهذا الجسد إتحادا حقيقيا ، وكاملا .. وصار

المسيح يجمع بين كونه إلهاً وبين كونه إنسانا .. فهو إله كامل ، وهو فى نفس الوقت إنسان كامل .. ولاهوته لم يتحول إلى إنسانيته، وإنما ظل لاهوته قائما على الرغم من هذا الإتحاد ومحتفظا بكل الخصائص والصفات الإلهية بلا نقصان .. وكذلك إنسانيته (أو ناسوته) لم يمتصها لاهوته ولا امتزج بها كما يمتزج الخل بالماء ، ولا اختلط بها كما يختلط القمح بالشعير .. وإنما هذا الإتحاد الكامل بين اللاهوت والناسوت اتحاد فريد من نوعه ليس له شبيه ولا نظير فى عالم المادة ، وليس هو كالإتحاد الكيميائى الذى ينتج مادة جديدة تختلف فى خصائصها عن المواد المكوّنة لهذا الإتحاد الكيميائى .. وإذا كان لابدّ من تشبيه قريب . وإن لم يكن كاملا . فاتحاد اللاهوت بالناسوت فى طبيعة المسيح هو شبيه باتحاد الروح بالجسد فى الإنسان ، الروح جوهر والجسد جوهر ، ولكنهما متحدان فى الإنسان ويؤلف إتحادهما طبيعة واحدة هى دون إختلاط او إمتزاج أو تغيير .. وقد يعيب هذا التشبيه أن الإتحاد بين الروح والجسد يقبل الإنفصال بالموت .. أما الإتحاد بين اللاهوت والناسوت فى المسيح فلا يقبل الإنفصال لحظة واحدة أو طرفة عين ..

وكذلك الإتحاد بين اللاهوت والناسوت فى المسيح يمكن تشبيهه . مع الفارق . باتحاد النار بالفحم ، فيصير جمر النار

يجمع بين خصائص النار وهى الإضاءة والتوهج والإحراق ، وخصائص الفحم وهى الكتلة والوزن والحجم .. كما يمكن تشبيه الإتحاد بين اللاهوت والناسوت فى المسيح باتحاد النار بالحديد عندما نضع قضيبا من الحديد فى النار مدة كافية ، فيصير قضيب الحديد متوهجا بالنار ، ويجمع بين خصائص النار وخصائص الحديد معا ، ومع ذلك لايتحول الحديد إلى نار ، ولا تتحول النار إلى حديد ، فالإتحاد بينهما لايبطل ولا يلغى خصائص أى منهما على الرغم من الإتحاد الكائن بينهما .

تلك هى أهم قضية إيمانية دافع عنها القديس البابا كيرلس الأول ، وكان ذلك إيضاحا وبيانا لحقيقة المسيح الإلهية ، وهو جوهر ديانتنا المسيحية وعمادها .

ورداً على نسطور بطريرك القسطنطينية الذى أساء الفهم وأساء التفسير والبيان ..

ولقد استاء نسطور من تصرف بطريرك الإسكندرية ، واعتبر رسائل البابا كيرلس التى تناول فيها الرد على البدعة النسطورية ، تعدياً على الحدود ، وخروجاً على إختصاصاته بإعتباره أسقف الإسكندرية وليس له أن يتجاوز حدود إيبارشيته أو إقليمه لينقد تصرف أسقف القسطنطينية . فكان ردّ البابا كيرلس واضحا وصريحا : ليس لأسقف أن يتعدى على حدود أسقف آخر إداريا أو راعويا . أما إذا كانت القضية

إيمانية عقائدية ، فللأسقف أن يتحدث ويدافع ويناقش ويرد على تعليم يراه مخالفا للإيمان المسيحى . إن الأسقف له إيبارشية جغرافية لايجوز له أن يتخطاها إلى حدود إيبارشية أسقف آخر ، فلا يجوز له أن يدخل إلى بلد أخرى تتبع أسقفا آخر بدون إذنه أو بدون علمه ، أو بدون دعوة منه . أما أن يرى مخالفة تتصل بالإيمان ويصمت ، فهذا شرّ وخطيئة وإثم ، وتقصير فى أخص واجباته الأسقفية ، لأن الأسقف مرسل إلى العالم كله . وليس له فيما يتصل بالعقيدة والإيمان حدود جغرافية .. إنه رسول .. والمسيح أرسل رسله للخليقة كلها .. وبعبارة أخرى يقول البابا كيرلس .. ليس لى بوصفى أسقف الإسكندرية أن اقتحم إيبارشية القسطنطينية واتدخل فى تنظيمات الرعاية ، وإدارة شئون الرعية .. فهذا كله من إختصاص أسقف القسطنطينية. أما قضايا الإيمان المسيحى فلأسقف الأسكندرية ما لكل أسقف آخر فى المسكونة أن يتحدث فيها وعنها بوصفه رسولا للمسيح مرسلا للعالم بأسره.

بهذا المنطق السليم ردّ البابا كيرلس على اعتراض نسطور الشكلى بقصد أن يوقف نضال القديس كيرلس ويصمت صوته..

ولكن صوت البابا كيرلس أخذ يعلو ودفاعه يمتد .. حتى شغل جميع كنائس العالم بقضية طبيعة المسيح الإلهية ، وحقيقة الإتحاد القائم بين لاهوته وناسوته فى طبيعة واحدة وأقنوم واحد ، طبيعة من طبيعتين ، طبيعة مركبة جمعت بين خصائص اللاهوت وخصائص الناسوت معا ولكن بإتحاد بسيط ، بغير إختلاط ولا إمتزاج ولا تغيير .. شبيه مع الفارق باتحاد الروح والجسم فى الإنسان ، وبإتحاد النار والحديد ، وإتحاد النار بالفحم فى جمر النار ..

لهذا الدفاع المجيد ، والبيان العظيم الذى شرح للمسيحيين وغير المسيحيين ، حقيقة المسيح وطبيعته الواحدة التى جمعت بين الخصائص اللاهوتية والإنسانية ، صار كيرلس الأول هو ترجمان العقيدة المسيحية فى القرن الخامس وامتد الإيمان بسلامة تعليمه إلى كل الأجيال اللاحقة ، فصار يعرف بكيرلس عمود الإيمان ، وكيرلس عمود الدين ، وكيرلس الكبير ، والشبل القوىّ والشجاع ابن الأسد (أثناسيوس) ، ومصباح البيعة الأرثوذكسية ، وكيرلس الحكيم ، وحكيمنا ، وكيرلس معلم الأقوال الإنجيلية المقدسة ، والراعى المغذّى لكل القطيع الرسولى الذى للملك المسيح ، وكيرلس الشبيه بالرسل ، وكيرلس المدهش العظيم ، وكيرلس الحكيم رئيس الكهنة ، وكيرلس معلّمنا ، وكيرلس الجزيل الحكمة ، وكيرلس العلّامة

العظيم، وكيرلس المعلّم ، ودكتور الكنيسة الجامعة، وكيرلس عمود النار المنير ، وكيرلس النجم الذى أضاء على المسيحيين ، وكيرلس السحاب المنير ، وكيرلس الصورة الحية للفضائل المسيحية ..

كل تلك الأسماء والألقاب والصفات خلعتها كتب الكنيسة الجامعة الرسولية على البابا كيرلس الأول الأسكندرى البطريرك الرابع والعشرين من بطاركة الأسكندرية .

وفى كتب المؤلفين والعلماء على مرّ العصور وإلى اليوم نجد ثناء على روحانيته وتقواه وغيرته وقداسة سيرته ، وعلى علمه وسعة درايته بالكتب المقدسة، ورجاحة فكره ، وفصاحته ، وبلاغته ، وعمق تعبيراته ، وصدقها وسلامتها ، وعلى أمانته ودقته .

ومما يرد فى كتب العلماء عنه أنه لاهوتى من أعلى طراز . فكر راسخ ، وعقل واضح بصورة تستحق الإعجاب . وهو يعد . بلا منازع . أعظم معلّم (لسرّ التجسد الإلهى) ، كما كان القديس أوغسطينوس أعظم معلّم فيما يتصل بموضوع (النعمة الإلهية) . ومن سجاياه الحماسة والغيرة المقدسة إلى حدّ العنف أحيانا ، والقسوة فى بعض الأحوال . ولكنه فى نفس الوقت ، جرىء ، ولبق ، وصبور ، ومثابر ، وقادر على ضبط نفسه حتى فى الأحوال التى يكون فيها ضبط النفس عسيرا. حياته

الشخصية بلا لوم ، وتند عن كل مأخذ . عنده النظرة الدينية والتصوفية السرية تعلو على كل شىء آخر ، وتتميز بميتافيزيقية راسخة جدا ، على عكس المدرسة الأنطاكية التى تبرز وتتميز بالنظرة التاريخية والفيلولوجية، وتهتم أولا وقبل كل شئ آخر بتحليل النصوص والوقائع البشرية تحليلا دقيقا متشددا .. وكان البابا القديس كيرلس الأول يتملكه إيمان قوّى حىّ أقوى مايكون الإيمان قوة وحيوية ، بوحدة طبيعة السيد المسيح وأقنومه وأنه واحد لا إثنان ، هو ابن الله وهو أيضا ابن مريم .. وهذه هى أساس إيماننا وعقيدتنا بحقيقة شخصيته، وأنه يجمع بين كونه إلها وبين كونه إنسانا فى نفس الوقت.. والقديس كيرلس الإسكندرى لم يكن رجلا حزبيا ، لم يكن لحزب معين.. وإنما كان ولا يزال اللاهوتى العظيم للكنيسة كلها ... " أبونا كيرلس " أبو المسيحيين جميعا فى الشرق والغرب .

FINE CO. 24824113